

تكوين آدم وتكريمه



- ظهور آدم:

تبدأ قصة خلق آدم بتلك المحاورة بين الله والملائكة: فإلى سبحانه يخبر الملائكة بأن الله سيجعل في الأرض خليفة هو آدم وذريته، وأن سيمنحهم في الأرض ويجعلهم أصحاب السلطان فيها، ولكن الملائكة تعجبوا من هذا النبأ، فالذي سيكون خليفة الله في أرضه لن يستطيع أن يقيم ملكوتاً يساوي ملكوت السماء رحمة وطهراً، فقد خلق الله بشراً قبل آدم فأفسدوا في الأرض، فقال الملائكة مخاطبين ربهم: أتجعل في الأرض بشراً يفسدون فيها بالمعاصي ويسفكون الدماء بينما نحن نزهك عما لا يليق بجلالك ونمجدك شكراً لك! قال الملائكة لربهم ذلك لأنهم رأوا أنفسهم أفضل من هذا المخلوق الذي سيُجعل خليفة، وأنهم أولى منه بخلافة الأرض، ولكن الله أجابهم بالسر المغيب عنهم والحكمة التي اختص بها في خلق آدم وهي أن الله يعلم ما لا يعلمون.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة/ 30).

- منزلة آدم:

وبعد أن خلق آدم علّمه أسماء الأشياء وحقائقها وخواصها ليتمكن في الأرض وينتفع بها حق الانتفاع. ثم أراد أن يُري الملائكة رأي العين أن هذا الكائن الجديد الذي صغروا من شأنه هو أكثر منهم علماً وأوسع معرفة، ولهذا سألهم أن يخبروه بأسماء أشياء معينة وخواصها إن كانوا مصيبين - في ظنهم - وأنهم أحق منه بخلافة الأرض.

ولكن الملائكة عجزوا عن الإجابة وخاطبوا ربهم معذرين: إننا ننزهك يا ربنا التنزيه اللائق بك، ولا نعترض على مشيئتك إذ لا علم عندنا إلا الذي وهبتنا إياه وأنت العليم بكل شيء، الحكيم في كل أمر تفعله.

ويدعو أن سبحانه آدم ليكون معلماً للملائكة ويقول له: يا آدم أخبر الملائكة بما سألتهم، فيجيب آدم، ويظهر فضله عليهم، وهنا خاطب أن الملائكة: ألم أقل لكم إنني أعلم ما في السماوات وما في الأرض مما لا يعلمه غيري وأعلم ما تظهرون من أقوالكم وما تخفون في نفوسكم.

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْزِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْزَلْتَ الْعِلْمَ الْحَكِيمَ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْزِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْزَلَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْزِئُوا أَعْلَامُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَامُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تُكْتُمُونَ) (البقرة / 31-33).

- تكريم آدم:

ويخبرنا القرآن عن المادة التي خلق أن منها آدم:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِزِّئْنِي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ) (ص / 71).

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ) (الحجر / 26).

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) (الرحمن / 14).

سوى أن آدم من طين أسود على هيئة إنسان حتى إذا جف إلى حد أنه إذا نُقِرَ سمع له صوت، غيّرهُ طورا بعد طور، ثم نفخ فيه من روحه فإذا هو إنسان من لحم ودم وعصب يتحرك بإرادة ويفكر. ثم يأمر أن الملائكة بتكريم آدم بأن يسجدوا له سجود تكريم لا سجود عبادة، لأن أن لا يأمر أحداً أن يتوجه بالعبادة إلى سواه.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِزِّئْنِي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (الحجر / 28-29).

ففي هذه الآية ثلاث مكرمات خص بها آدم:

أولاً: خلقه بيده.

ثانياً: نفخه فيه من روحه.

ثالثاً: أمره الملائكة بالسجود له.

- سجود الملائكة وامتناع إبليس:

سجد الملائكة كلهم لآدم - امتثالاً لأمر الله - باستثناء إبليس الذي أبى أن يسجد إستكباراً وعناداً، ولقد سأله الله تعالى - وهو أعلم - عن السبب الذي منعه من السجود لآدم بعد أن أمره به فاحتج بأزوه أفضل منه تكويناً، فهو قد خلق من نار، بينما آدم قد خلق من طين، والنار في رأيه أفضل من الطين وأبدى غاية التكبر، عندئذ طرده الله من الجنة، ولعنه لعنة دائمة إلى يوم القيامة بسبب كبريائه.

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْرَاهِيمَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عِلَّيْكَ لَْعُنَتِي إِلَى يَوْمِ الدَّيْنِ) (ص/ 78-73).

* آدَمُ وإِبْلِيسُ:

- طرد إبليس من الجنة:

كان جزاء إبليس على عناده وكبريائه وتمرده عن السجود لآدم هو الطرد من الجنة ذليلاً مهاناً. وطلب إبليس من ربه أن يمهله حيّاً إلى يوم القيامة فأجب الله طلبه لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، وعلّل طلبه قائلاً: بسبب حكمك عليّ يا رب بالهلاك أقسم لأحاولنّ جهدي أن أضل بني آدم واصرفهم عن طريقك المستقيم متخذاً في سبيل ذلك كل وسيلة ممكنة، وسأتيهم من كل جهة استطيعها مترقباً كل غفلة منهم وضعف حتى أصل إلى إغوائهم وإفسادهم، واجعل أكثرهم غير شاكرين لك.

ولكن الله نهره قائلاً: أخرج من الجنة مذموماً مطروداً من رحمتي وأقسم أني سأملأ جهنم منك وممن يتبعك من بني آدم أجمعين. وهذا ما ذكره الله تعالى بقوله: (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيِّنٍ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ) (الأعراف/ 13-18).

وتارة يصور القرآن عزم إبليس على إغواء آدم باستثناء عباد الله الصالحين: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ لَمْ يَخْلُقْ عَلَيَّ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذَا الْـذِي كَرَّمْتَهُ عَلَيَّ لَئِنَّ أَخَرْتَنِي إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ * فَإِنْ جَهِنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَغْفِرْ لَهُ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُ بَصَوتُكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بَخَائِلُكَ وَرَجْلُكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدِّدْ لَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا) (الإسراء/ 65-61).

والمنى: إن الله قال للملائكة حيوا آدم وكرموا بالإنحاء له، فامثلوا لأمره إلا إبليس امتنع وقال منكراً: كيف اسجد لمن خلقته من طين؟. أخبرني يا رب عن هذا الذي كرّمته عليّ حين أمرتني بالسجود له، لِمَ فضلته عليّ مع أنّي خير منه؟ ولئن أخرت موتي إلى يوم القيامة لأهلكن ذريته بالإغواء والضلال إلا القليل منهم ممن عصمته وحفظته. فقال الله مهدداً إياه: امض لشأنك الذي اخترته لنفسك فمن اطاعك من ذرية آدم فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم، وهو جزاء وافر كامل. ويمضي الله سبحانه في وعيده قائلاً: استخف وأوقع في معصية الله من استطعت منهم وافر جهدك في جميع أنواع الإغراء وشاركهم في كسب الأموال المحرمة وصرفها في المعاصي، وتكفير الأولاد واغرائهم على الفساد، وعدهم المواعيد الكاذبة الباطلة. ثم يستدرك الله فيقول: إن ما يعد الشيطان اتباعه إنما هو غرور وتمويه، أما المخلصون من عباد الله المؤمنين فليس لإبليس عليهم سلطة ولا قدرة لأنّهم توكلوا على ربهم، وكفى بالله نصيراً.

- خلق حواء:

أمر الله آدم أن يسكن الجنة مع زوجته، واختلف العلماء في الوقت الذي خلقت زوجته فيه، فقيل: إن الله تعالى لما أخرج إبليس من الجنة واسكن فيها آدم بقي فيها وحده وما كان معه من يستأنس به، فألقى الله تعالى عليه النوم، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ووضع مكانه لحماً وخلق حواء منه فلما استيقظ وجد عند رأسه امرأة قاعدة فسألها: من أنت؟ قالت: امرأة، قال: ولمّ خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ. وفي القرآن الكريم إشارة لذلك، قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) (النساء/ 1)، (وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...) (الأعراف/ 198).

- إغواء إبليس لآدم:

لما اسكن الله آدم وزوجته الجنة أباح لهما أن يتمتعا بكل شيء فيها فيأكلان ما يشتهيان من ثمرها، ولم

ينهما إلا عن شجرة واحدة، وأمرهما أن لا يقرباها وأن لا يذوقا من ثمرها، وأنهما إن فعلا ذلك يكونان من الظالمين لأنفسيهما بمخالفة أمر الله، وما يترتب على ذلك من العقوبة.

سُـرَّ إبليس في قرارة نفسه لأنه وجد في ذلك النهي منفذاً ينفذ فيه إلى آدم وزوجته، فأخذ يحدثهما ويغريهما ليأكلا من ثمر تلك الشجرة ليكون عاقبة ذلك كشف ما سُـتر وغطى من عوراتهما.

وقد بالغ إبليس في إلحاحه وخداعه فأوهمهما أن الله منعهما من الأكل من تلك الشجرة لكي لا يصيرا ملكين، ولا يخلدا في الجنة ذات النعيم، وأقسم إن الله لهما من الناصحين. قال تعالى: (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَزْوَاجَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنْ تَرِيَا لَكُمَا لَمَنِ الذَّاصِحِينَ) (الأعراف/ 19-21).

- خطيئة آدم:

نسي آدم وحواء أن إبليس هو عدوهما، ووقعا في حبال الفتنة، وأكلا من الشجرة، فلما ذاقا طعمها، انكشفت لهما عوراتهما، وكانا قبل ذلك لا يرى كل منهما عورته ولا عورة الآخر، ومن فرط حيائهما اخذا يجمعان بعض أوراق الشجر ليغطيا به ما انكشف. وناداهما ربهما مؤنباً أياهما على ذنبهما: ألم انهكما عن الأكل من تلك الشجرة، واخبر كما إن الشيطان لكما عدو مبين؟

وشعر آدم وحواء بمبلغ ما اقترفا من إثم في معصيتهما، فندما أشد الندم وتضرعا إلى ربهما قائلين: يا ربنا إننا ظلمنا أنفسنا بعصيانك ومخالفة أمرك فاغفر لنا وارحمنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا بفضلك لنكونن من الخاسرين.

(فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتَا لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَفَا بِخُصْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُولُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَاهَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (الأعراف/ 22-23).

- العفو عن آدم وإخراجه من الجنة:

قِيلَ إِنَّ توبة آدم (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ) إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة/ 37).

ولكن الله أنزل آدم وحواء من الجنة إلى الأرض، وأخبرهما إن الله سيكون لذريتهما عداً فيما بينهم،

وإنَّهم سيقِيمون في الأرض يعمرونها ويتمتعون فيها تمتعاً موقوتاً إلى حين إنتهاء آجالهم، وأنه سبحانه سيمدهم بالهدى والرشاد، فمن تبع هدى الله فلن يقع في المآثم في الدنيا ولن يشقى فيها.

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) (الأعراف/ 25).

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا مَسًّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ رَبِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَى) (طه/ 123).

- الجنة التي اسكن الله فيها آدم:

اختلف العلماء في الجنة المذكورة في القرآن التي أسكن الله فيها آدم والتي أمره بالهبوط منها هل كانت في الأرض أو في السماء.

والرأي الراجح إنَّ هذه الجنة كانت في الأرض لأنَّ الله سبحانه خلق آدم في الأرض كما في قوله تعالى:

(إِنَّمَا جَعَلْنَاهُ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة/ 30)، ولم يذكر الله أنَّهُ نقله إلى السماء.

ثمَّ إنَّ الله تعالى وصف الجنة الموعودة في السماء (جنة الخلد) ولو كانت هي ذاتها التي أسكنها لآدم لما تجرأ إبليس أن يقول لآدم: (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْذُلُهُ) (طه/ 120).

وجنة الخلد دار للنعيم وليست بدار تكليف وقد كلف الله آدم وحواء بأن لا يأكلا من الشجرة.

كما إنَّ جنة الخلد التي في السماء وصف الله من يدخلها (وَمِمَّا هُمُ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) (الحجر/ 48)، (وَأَمَّا السَّادِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا) (هود/ 108)، بينما أخرج آدم وحواء من الجنة التي أدخلها فيها فتعين أن تكون تلك الجنة غير الموعود في القرآن للمؤمنين الصالحين يوم القيامة.

ووجه آخر أن إبليس لما امتنع عن السجود لعنَّ وأخرج من الجنة فلو كانت هذه جنة الخلد فإنَّه لا يقدر مع غضب الله أن يصل إلى جنة الخلد ويوسوس فيها لآدم وحواء.

يتبين مما ذكرنا إنَّ الجنة التي أسكنها الله لآدم هي غير جنة الخلد التي هي في السماء، ولا يمنع أن تكون الجنة التي أسكنها الله لآدم مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم، وهي التي وصفها الله بقوله: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَقُ) (طه/ 118-119).

أي هذه الجنة لا تجوع فيها ولا تتعري من اللباس ولا يمس باطنك حرٌّ الظمأ ولا ظاهره حرٌّ الشمس، ولكن لما أكل آدم وحواء هبطا إلى أرض الشقاء والتعب والإبتلاء والإمتحان.

وأما من احتج بأن آدم وحواء كانا في جنة الخلد التي في السماء وأمرهما بالهبوط إلى الأرض بدليل قوله تعالى: (فُلَاذًا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا...) (البقرة/ 38)، فقد رُدَّ على ذلك بأنَّ

الهبوط يأتي بمعنى الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى: (اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ) (البقرة / 61)، وكما قال سبحانه عن نبيه نوح حين أمره بمغادرة السفينة (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا) (هود / 48).

المصدر: كتاب مع الأنبياء في القرآن الكريم